

الأفغانى والوحدة الإسلامية

للأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف

- ٣ -

→→→→→

ماذا كان يرجو السيد الأفغانى من وراء الوحدة ؟ وماذا كان يعلق عليها من الآمال والأغراض ؟ ويحدد لها من الأهداف والغايات ؟

لقد كان الرجل يقف من ذلك باديء الأمر عند مسألة المسائل ، فكان كل ما يرجو أن تكون الوحدة قوة دفاعية تقف في وجه الاستعمار ، وتقوم « سداً يحول عن المسلمين السيول المتدفقة عليهم من كل جانب » ، ومعنى هذا أنه كان يرجو من الوحدة أن تكون وقاية وحماية ، هدفها الوقوف في وجه الخطر وكفى ، ولكننا نراه بعد ذلك يتوسع في الأمل ، ويتفصح في الغاية ، إذ يقرن « بالليل إلى وحدة تجمع ، الكلف سيادة لا توضع !! » ، ويطمح أن يرى المسلمين « تتلاقى همهم ، وتتلاحق عزائمهم في سبيل الطلب ، فيندفعون للتغلب على الدين يلوهم ، كما تندفع السيول على الوهاد ، وألاً تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا إليه .. !! »

وكأن الرجل قد رأى نفسه في القمة من رأى والقوم لا يزالون يدرجون عند السفح ، وكأنه أدرك أنه بلغ في التوسع بالأمل مبلغاً تتعاضله النفوس ، وتسهره العزائم ، فأخذ يتلمس كل وجه من وجوه التدليل على ما يجب من الحماسة لهذه الغاية الضرورية ، وراح يبذل كل ما في وسعه من اللباقة والزلاقة ليصل بهذا رأى إلى أطواء القلوب ومكامن العقيدة ، فترأى أن الوحدة والسيادة « أمران خطيران ، تحمل عليهما الضرورة تارة ، ويهدى إليهما الدين تارة أخرى ، وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه ، بل يستلزمه » ، وبعد أن يتمشى الأفغانى في شرح هذا الاستلزام من الناحية النظرية ، ينجح في الاستدلال إلى ما يدل عليه « تصفح تاريخ الأجناس ، واستقراء أحوال الشعوب في وجودها وفنائها ، وما درجت عليه سنة الله في الجمعيات البشرية ، من جعل حفظها

من الوجود على مقدار حفظها من الوحدة ، ومبلغها من المنظمة على حسب تطاولها في القلب .. !! » ، ثم ينتهى في أسلوبه هذا إلى الورى الحساس ، وتر الدين الشدود بالقلوب ، فيقرر « أن الوفاق والقلب ركنان شديدان من أركان الديانة الإسلامية ، وفرضان محتومان على من يستملك بهما ، فمن خالف أمر الله فيما فرض منهما عوقب من مقتته بالحزى في الدنيا والمذاب في الآخرة .. !! » ، ولكنه لا يخلص من هذه النتيجة إلا بعد أن يدعمها بكثير من آيات التنزيل ومأثور السنة ومواقف الإسلام ..

فأهذا ؟ أمى أحلام المجد ، وسرات مثالية كانت عملاً رأس الرجل وتقوم وجدانه ؟ أم هى دعوة إلى الممكن يؤدى إليها الامكان ويحتملها الجهد ؟! يبدو لنا أن الأفغانى وضع أمامه صورة الأباطورية الإسلامية في عصرها الزاهر ، وسلطانها الغالب ، وأخذ يرسم للمسلمين صورة مماثلة لها ويضعها أمامهم الغاية الرشيدة التى يجب عليهم بلوغها والأخذ بأسبابها ، فكان منيعه هذا كمنيع الحكماء فيما تصوره في قيام « المدينة الفاضلة » ، كل ما عدهم أن يصح الرأى في أذهانهم ولا شأن لهم إذا لم يصح في عالم الواقع الذى عليه الناس ، وهكذا راح الرجل يمحج في أمل طويل عريض ، ويقف بالرأى عند غاية محتاج في إدراكها إلى رجال ورجال كما يقولون ، وفاته أنه كان يهز جسماً فقد حيويته ، وينادى على عالم ضاعت معالاه ، فليس هذا مما يكنى في إيقاظه ، ولكنه كان محتاج إلى بحث جديد ، وخلق من طراز آخر .

فالأفغانى لم يكن في أمله هذا بالرجل السياسى الذى يرسم طريق الخلاص على ما تسمح به الظروف والملاسات ، وما يمكن أن يكون في عالم الواقع المائل بما يصح أن تبلغه الجهود ويؤدى إليه الاستعداد ، ولكنه كان يترج زعة مثالية يضع بها الأمل فوق العزم ، وينتهى فيها إلى غاية أكبر من الجهد ، وهل كان من الممكن أو من المقبول أن ينهض العالم الإسلامى الذى فرقه الاستعمار ، وقتله الجود ، وقصد كل عدة مادية ، وقوة معنوية ، فيقف بين عشية وضحاها جبهة مدافمة ، وقوة متسلطة ، أمام الغرب الطاغى ، والاستعمار الزاحف بما لا مثيل له في التاريخ من أساليب السياسة والفكر ، وأفانين المدة والنخر ، فياليت شعرى ، ألم ير الأفغانى ، وهو الذى طوف بكثير من أنحاء الدنيا

النفوس والقلوب عقيدة راسخة ثابتة ، فالمبادئ التي نادى بها الثورة الفرنسية لم تستطع القوة أن تحققها طرفة ، ولم تقدر المقصلة أن تفرضها رغبا ورهبة ، ذلك لأن الزمن لم يكن قد أنضج تلك المبادئ بعد ، نشبت الثورة واستطارت لميسها في أرجاء العالم ، ثم همدت وماتت وقد خلفت من ورائها تلك المبادئ بتحقيقها الزمن بما في قدرته على الإنضاج والتسوية ، ولا يزال الزمن يجد في تحقيقها إلى اليوم . وكذلك كانت الثورة المراتية ، تلك الثورة التي قامت كما نعلم تروم خطة واسعة وغاية كبيرة كانت لا تزال نجوى في المجال الفكري والعقلي عند القادة ، ولم تكن قد انحدرت بعد إلى قلب الشعب في مكان العقيدة ، ولهذا فشلت الثورة بها لحاجة كما قامت لحاجة ، وانتهت على أهون ما يكون كما ابتدأت بأهون ما يكون . ولو أن الشعب كان يضم جوانحه على ماتنادي به الثورة من المبادئ والأغراض ، وما تهدف إليه من المطامح والغايات ، لما أفلحت الدسيسة في خذلانه ، ولا وجدت الخيانة مكانا بين صفوفه ، ولما سلم في الجولة الأولى وجعلها بداية النهاية .

فما نحسب أن الأفغانى كان يحنى عليه إدراك هذه الحقيقة ، ولكنه كان ينظر إلى طينان الاستعمار على الشرق وإلى المطامع التي أنشبت أظفارها بمنته ، فكان يفرغ لسوء النية ، ويجزع من التراخي أمام الكارثة ، ويصرخ بدعوته إلى رأب الصدع وحشد الجهود وفى الأمل بقية . وإن من الظلم للتاريخ وللرجل أن تهمة بالفشل وأن نصف مساهم بالخيبة ، فخبه نجاحا أنه رسم الطريق ، وهيا الأذهان ، وأقام فكرته عقيدة كان لها أكبر الأثر في توجيه الشرق الإسلامى إلى بحالى النهوض والتجمع ، وإن ماوصلنا إليه من وضع فى الوحدة لثمرة من ثمرات ذلك الرجل العظيم .

لقد أبقت دعوة الأفغانى الشرق ، كما أفرغت الغرب ، وعلى الرغم من أن الرجل كان يبذر آراءه فى تربة غير صالحة من طول ما تراكم عليها من صدا الجهل واستبداد الظلم وبأس الخنوع ، فقد استطاع لصديق غيرته وشدة نخوته وقوة شخصيته أن يصل بها إلى قراة النفوس والقلوب ، وأن يحشد لها جهود النيورين ، وأن يقيم لها دعامة قوية من التلاميذ والمريدين ، وبهذا أصبحت تياراً

كيف كان الغرب يسير بالبخار وبالكهرباء على حين كان الشرق فى ذلك الوقت لا يزال يركب الجمل ؟ ! .

إنها فى الواقع حقيقة لم تنف عن فطنة الأفغانى ، ولم تنرب عن إدراكه النافذ ، فعلى الرغم من أنه كان يشق ثقة كبيرة بالقيمة العددية واحتشاد الجوع ، فإنه لم يقف بأمله عند تحقق الوحدة وجمع الكلمة ، بل أخذ يدعو إلى الاستعداد للمادى « واكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته » ، وإنه ليضرب للمسلمين المثل فى ذلك بأمة الروس ، وهى كما كانت « أمة متأخرة فى الفنون والصناعات عن سائر أمم أوروبا ، وليس فى ممالكها يتابع للثروة ، ولكن كانت ، فليس هناك ما يستغنيها من الأعمال الصناعية ، فهى مصابة بالحاجة والفاقة والعوز ، غير أن تنبيه أفكار آحادها لا به يكون الدفاع عن أنفسهم ، واتفاقهم على النهوض به ، وارتباط قلوبهم سير لها دولة تتمد لسطواتها رواسى أوروبا . لم يكن للروسيا مصانع لمعظم الآلات الحربية ولكن لم يمنحها ذلك عن اقتنائها ، ولم يرتق فيها الفن المسكرى إلى ما عليه جيرانها ، إلا أن هذا لم يقعد بها عن جلب ضباط من الأمم الأخرى لتعليم عساكرها حتى صار لجيشها صولة تخيف ، وحلة تخشاه دول أوروبا .. »

وهذا صحيح ، صحيح فى عالم المقول ، وفى عالم الإمكان ، وهنا يسير الأفغانى بأمله فى الوحدة إلى طريق عملى ، ويهذى إلى أسلوب واقعى ، كان من الضروري أن يكون فى إدراك الغاية ، وبلوغ الهدف ، وهو الذى كان فعلا فيما أخذت به الأمم الإسلامية فى نهوضها وفى توثيقها إلى حياة العزة والحرية ، وما من شك فى أن الأفغانى كان يعلم أن هذا الطريق يستغرق فى اجتيازه مسافة من السنين والأعوام ، وأنه لا يؤدى إلى نتيجة عاجلة يستطيع العالم الإسلامى بلوغها فى أيام ، ولكنه على الرغم من ذلك كان يتادى وبهيب ويتعجل الغاية ويطمع أن يرى التوم عندها بين طرفة عين وانتباهتها . وهنا يبدو الأفغانى مرة أخرى مسرفاً فى الأمل ، مسرفاً فى الرجاء .

إن بناء الأمم والشعوب يتمشى مع الزمن وبطور الأيام ، ولن تستطيع دعوة من دعوات الإصلاح أن تؤتى ثمرها وأن تتحقق النتيجة من ورائها إلا إذا نضجت واستوت وأشربتها

حسابها أم إسلامية لا تمت إلى العربية ولكن لابد من ضمها إلى الوحدة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن « الإسلامية » كانت كما يقول بعض الكتاب : « رمزاً لروح خاص ، وعقلية خاصة ، وحضارة خاصة أيضاً » ، وقد كانت الرابطة المتينة التي ربطت أجزاء الإمبراطورية العربية على طولها وامتدادها في أفريقية وآسيا وأوروبا ، وقد كانت تركيا نفسها تحكم هذه الشعوب وتبسط سلطانها على جميع الطوائف في الشرق باسم الاسلام وحمل لواء الخلافة الاسلامية .

والواقع أن الأفغانى لم يكن واحداً في اختيار العامل الدينى الوحدة وجمع الكلمة ، فقد ظل هذا العامل يكيف التفكير الاجتماعى والاتجاه العمرانى في الشرق آماداً طويلة وقروناً متعاقبة ، ولم يكن لعامل من العوامل في تحريك الرجذانات والعواطف وسحر العقول والقلوب مثل ما كان لذلك العامل العريق الذى صنعه الزمن وقبواه التاريخ وأرسخته الشاعر المستفرقة ، فكان اختيار الأفغانى اختياراً طبيعياً ضرورياً لا غبار عليه ولا مناص منه ، لأنه أمسك رابطة قوية متينة لا تقوى عليها إلا رابطة راسخة تسندها قوة دافعة ، ولو أن الرجل تنكب هذا الطريق ونظر إلى الاعتبار السياسى بعيداً عن هذه الرابطة لما صنع شيئاً ، ولضاعت صرخته في واد .

محمد فهمى عبد اللطيف

(للكلام ملة)

إدارة بلديات — مطانيء

تطرح بلدية بنى سويف بالمزايدة العامة بيع سيارات وكاوتش وصفائح فارغة وصاج وحديد وظهر خردة وأصناف أخرى مستعملة ، وتقبل المطايات بالبلدية لنفاية ظهر ١٩٤٥/٥/٥ وتطلب الشروط منها نظير مائة مليم .

٣٣٨٥

فكرياً مضاداً لأطماع الاستثمار الأوروبى من جهة ولفاسد الاستبداد العثمانى من جهة أخرى ، ولم يكن الاستثمار الأوروبى الطامع بجعل خطر هذه الدعوة عليه إذا ما نجحت ، ولم تكن تركيا دولة الخلافة والرئاسة تنظر إليها إلا بعين الشك والريبة ، بل كانت تراها فكرة هدامة ، ودعوة إلى التمرد على « الاسلامية » التى تمثلها الخلافة ، فكان من الطبيعى أن يكون الأفغانى ومريدوه والتشيعيون له هدفاً للمناهضة والتنديد والاتهام . وكان أول تهمة أقيمت على الأفغانى وأتباعه في دعوتهم أنهم دعاة عصبية وتعصب . وقيل يومذاك إنهم يريدون النهوض بالمسلمين على حساب الطوائف الأخرى التى تقطن البلاد الإسلامية ، وارتفعت صيحات كثيرة تندد بالتعصب وبالمسلمين « الجامدين » الذين يدعون إلى العصبية . ارتفعت هذه الصيحات من جانب الغرب وفى وسط الشرق الاسلامى نفسه ، وكان لها أثر ملموس في مناهضة الوحدة على الوضع الذى كان يريده الأفغانى ، وإنها لتهمة مغرضة ينكرها الرجل كما ينكر دعايتها ، ولهذا اضطر الرجل أن يرسل هذه الصيحة التحذير والتنبية في العدد الثامن من مجلة العروة الوثقى إذ يقول : « لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها للمسلمين بالذكر أحياناً ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم ، ويتفق معهم في مصالح بلادهم ، ويشاركهم المنافع من أجيال طويلة ، فليس هذا من شأننا ولا مما نميل إليه ، ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا ، ولكن النرض تحذير الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً من تطاول الأجانب عليهم ، والأقصاد في بلادهم ، وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب في الأقطار التى غدر بها الأجانب ، واستأثروا بحجراتها ، وأذلوا أهلها أجعين ... »

فالأفغانى لم يكن داعية تعصب دينى بالمعنى المفهوم في الغرب ، ولم يكن داعية تعصب جنسى يقف عند صلات الدم ، ولكنه كان ينادى في ذلك بروح الإسلام السمحة ، وقد لبث هو وتلاميذه يصولون في مجالس الدعوة بهذه الروح وفى هذا الاتجاه ، وإذا كانوا في كتاباتهم قد دعوا إلى العصبية ، فإنا همى العصبية للنهوض والأخذ بأسباب التقدم ، ولو أننا رجعنا إلى كتاباتهم لرأيناهم يستعملون العربية والشرقية مرادفة للإسلامية ، وإنما دعا الأفغانى وأتباعه إلى الوحدة باسم الإسلام لتكون أعم وأشمل ، وليدخل في